ألم تر كيف فعل ربك
بأصحاب الفيل



تفسير سورة الفيل

للشيخ هاني حلمي حفظه الله

www.Manhag.net



الحمد لله وكفى وصلَّى الله وسلم وبارك على النبي المصطفى وآله المستكملين الشرفَ
ثم أما بعد،

فأسال الله تبارك وتعالى أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء همومنا،
اللهم ذكرنا منه ما نُسينا وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضيك عنا،
اللهم برحمتك الواسعة عُمَّنا وقنا شر ما أهمَّنا وأغمَّنا،
اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علما ينفعنا،
ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا.

تفسير سورة الفيل

يقول الله تبارك وتعالى:

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1] **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ}** [الفيل: 2] **{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ}**[الفيل :3] **{تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ}** [الفيل: 4] **{فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}** [الفيل: 5]

هذه السورة القصيرة سورة عدد آياتها خمس وهي من السور المكية، أول ما نتأمل دائمًا ننظر في الكلمات التي وردت في السورة مما يحتاج إلى شيء من البيان.

1. الوقوف على بيان الكلمات

- **قول الله تبارك وتعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ}** [الفيل: 1] **{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ...}** [الفيل: 2]

الكيد هو التدبير الخفي أو الظاهر بحقٍ أو بباطل، لفظ الكيد يستخدم عادة في الحرب وفي الاحتيال والاجتهاد وتدبير الأمور، فعادة يكون لفظ الكيد مستخدمًا في ما يكون في خفاء وإن استُخدِم في بعض الأمور الظاهرة لكن الأغلب يكون كذلك.

- {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} [الفيل :2] تضليل أي في محيط من الضياع والهلاك، يُقال ضلله أي ضيع مسعاه وأفسد تدبيره وأبطل كيده، {...فِي تَضْلِيلٍ} في ضياع وهلاك.
- {وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3] كلمة أبابيل أي جماعات متلاحقات يتبع بعضها بعضا.
- {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} [الفيل: 4] أي من طين مُتحجر مُتصلب، وربما كان للنار أثرٌ في جعله كذلك، أي أن أصله من طين ويدخل فيه النار فيجعله مُتصلب.
- {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ...} [الفيل: 5]

العصف هو ما تأكله الدواب من نباتات الأرض، كالزرع الذي يُؤخذ حبه ويُترك سائره طعامًا للدواب مثل البرسيم والتبن ونحو ذلك، {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ...} [الفيل: 5] أي أن هذا ما يأكله الدواب وهذا فيه دلالة على حقاره شأنهم.

أول شيء وقفنا عند الكلمات الغريبة إذًا أول شيء نفعله عند تدبر الآيات، أول شيء الكلمات التي تحتاج إلى بيان نتوقف عندها.

2. الوقوف على موضوع السورة

الأمر الثاني دائما ننظر في موضوع السورة، كل سورة من سور القرآن المائة وأربعة عشر لها موضوع، ولذلك قُسِّمَ القرآن إلى سور على هذا الاعتبار، ولم يكن كلاً واحدة وإنما قُسِّمَ بهذا التقسيم لأن لكل سورة موضوع، وجميع هذه الموضوعات تصب في الموضوع الرئيس الذي أنزل من أجله القرأن وهو الهداية {...هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} [البقرة: 2] أي أنني دائمًا أفكر في الموضوع انظر إلى هذا الجانب وهو جانب الهداية .

أ. موضوع سورة الفيل

يظهر لكل متدبر أن موضوع سورة الفيل يدور حول تذكير مشركي أهل مكة وما حولها إبان التنزيل بما أنزل الله عز وجل من عذاب وإهلاك هؤلاء أصحاب الفيل، هذا الجيش الذي قدِمَ من اليمن بقيادة أبرهه الحبشي الذي جاء قاصدا تدمير الكعبة "بيت الله الحرام"، وهذا التذكير فيه تهديد ضمني لهم بأنهم إذا أرادو النبي ﷺ بسوء أو بشر، فإنهم سيكونون عُرضة لعذاب من الله تبارك وتعالى كالذي تعرض له جيش أبرهه.

إذًا موضوع هذه السورة تذكير بسنة من سنن الله تبارك وتعالى في إهلاك الظالمين الذين يتعدوّن الخطوط الحمراء ويتعدوّن حدودهم، وفيها أيضا بيان لنصر الله للمؤمنين، وهذا التهديد للمشركين في طيه الطمأنة ضمنية للنبي ﷺ وللمؤمنين بأن الله عز وجل هو الولي النصير فالله ناصر وحافظ وحاميه، من كل الذين يريدون به شرا.

وهذا التهديد لو عرفنا أن سورة الفيل هي من حيث النزول هي السورة التاسعة عشر، سورة مكية من أوائل ما نزل السورة التاسعة عشر من حيث النزول فاستخدام هذا النوع في بداية الوحي بأن يُهدد القرآن هؤلاء، هذا أسلوب من أساليب الدعوة.

ليس طيلة الوقت يكون الأسلوب أسلوب ينحو نحو الرجاء ونحو تأليف القلب، أحيانا لابد للداعية أن يمزج ما بين الأمرين، مابين الخطاب الترغيبي وما بين الخطاب الذي فيه قوة وشِدة، ولذلك يمتاز هذا التهديد في المراحل المبكرة من دعوة النبي ﷺ بأن حادثة إهلاك أصحاب الفيل كانت حادثة قريبة، فعندما ضرب لهم المثال وهذا من فنون الدعوة أن الداعية دائمًا أبدًا لابد أن يتعايش مع واقعه وأن يستغل هذه الوقائع في إبراز بعض المعاني الإيمانية للناس، مثلًا وقعت حادثة من فترة ليست ببعيدة لابد أن يُعلق عليها الداعية بتعليق أو يستخدمها في خطابه الدعوي.

هكذا كان أسلوب القرأن فلم تكن حادثة أصحاب الفيل مضى عليها وقت طويل بل كان في مكة مَن عاصر هذه الحادثة فكان في ذلك تذكير بهذا الأمر ليكون فيه أكبر التأثير عليهم.

هناك نظائر لذلك في القرآن، مثلًا سورة الفجر وهي السورة العاشرة من حيث النزول، أيضا تضمنت هذا النوع من التهديد {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ} [الفجر: 6] {إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ} [الفجر: 7] {الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: 8] {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ} [الفجر: 9] {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ} [الفجر: 10] {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ} [الفجر: 11] {فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ} [الفجر: 12] {فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ} [الفجر: 13] {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: 14]

إذًا هذا من أساليب الدعوة.

إذًا موضوع السورة يدور حول معنيان: التذكير بسنن الله تبارك وتعالى في إهلاك الظالمين وفي نُصرة المؤمنين، وفي نفس الوقت أخذنا هذا النوع من أساليب الدعوة وهو نوع من التهديد والقوة في إيصال بعض المعاني.

ب. أسبـــــــــــــــــاب النزول

إذًا عرفنا هذا الموضوع لابد للمُفسِّر والمتدبر أن يعرف الجو الذي نزلت فيه الآيات أو ما نسميه بأسباب النزول أو القصة التي يحكي عنها القرآن، لابد أن يكون هناك بعض المعلومات الخارجية عن هذه الحادثة.

الله تبارك وتعالى افتتح هذه السورة بقوله {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]

أي ألم تُخبَر فتعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم تر أثار ما فعل ربك بأصحاب الفيل.

وقد اختُلِف في مولد النبي ﷺ من عام الفيل، والراجح أنه وُلد في هذا العام الذي حدثت فيه هذه الحادثة .

جاء عند أصحاب السير والأخبار بشأن قصة أصحاب الفيل ما يلي:

وقعت اليمن تحت حكم الأحباش أي أثيوبيا، أي أن اليمن حكمها مجموعة من الأحباش وقد كانوا يدينون بالنصرانية، وكان على اليمن من الأحباش أميران حبشيان، الأمير الأول يُدعى أرياض والأمير الثاني يُدعى أبرهه، فاختلفا وتصاولا وتقاتلا حتى قُتل أرياض واستبد بالسلطان أبرهه، وكان قد ضربه أرياض بالسيف على وجهه في مبارزة بينهما فشرم أنفه ولذلك كان يُدعى أبرهه الأشرم لموضع هذه الطعنة أو الضربة بالسيف من وجهه، شرم أنفه وفمه وشق وجهه، فكان هناك أثر لذلك فكان يُسمى بأبرهه الأشرم.

بناء أبرهة كنيسة القُلِّيس

واستقر أبرهه أميرًا على اليمن كله من قبل النجاشي ملك الحبشة .. بمعنى أن في هذه الفترة كان النجاشي هو الملك، وكان أبرهه يُعتبر أمير من أمراء النجاشي على اليمن .. وساء الأمر وحاول أبرهه أن يسترضي ملك الحبشة النجاشي حتى رضي عنه، وأراد أن يُبالغ في

استرضاؤه فكتب إليه يقول سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبنى قبلها مثلها، أبرهه يريد أن يستجدي النجاشي لأنه قد حدث نوع من توتر في العلاقات بينهما فقال له سأبني لك كنيسة لم يبنها أحد من قبل في أرض اليمن ولما بنى الكنيسة كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يبنى مثلها لملك كان قبلك، ولست بممتهن حتى أصرف إليها حج العرب .. أي بدل أن يحجوا إلى الكعبة سأجعلهم يحجون إلى هذه الكنيسة .. .

وسمى العرب هذه الكنيسة القُلّيس لأن الناظرين إلى أعلاها تتساقط قلاسنهم أي قبعاتهم ، سميت كذلك من كونها شاهقة لأن الناظر إلى أعلاها تسقط قلنسوته عن رأسه بسبب إرتفاعها وعلو بنائها فسميت كذلك القُلّيس على هذا الاعتبار لأن الناظر إلى أعلاها تسقط قلنسوته عن رأسه بسبب ارتفاعها وعلو بنائها.

قرار هدم الكعبة

وبلغ العرب عزم أبرهة على تحويل حجهم إلى كنيسته فكرهوا ذلك وغضبوا غضبا شديدًا، قالوا فجاء رجل من العرب وهو أحد بني فُقم ثم أحد بني مالك ودخل هذه الكنيسة وتبرَّز بها؛ إعلانًا عن تسخُّط العرب و إشعارًا بأن هذه الكنيسة لا تستحق في نفوس العرب أن يحجوا إليها، فاستفز بطبيعة الحال أبرهه إلى ما صنع وهذا يُذكِّر بصنيع خليفة المسلمين مع التتار.

النبي ﷺ في الحديث قال : "دعوا الحبشة ما ودعوكم، و اتركوا الترك ما تركوكم". [الراوي: رجل المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير - الصفحة أو الرقم: 4218 خلاصة حكم المحدث: صحيح]

من يقرأ في كتاب البداية والنهاية أحداث القرن السابع عندما كانت موجات التتار، يعرف أن الخليفة العباسي في هذا الوقت استفز التتار ببعض التصرفات الهوجاء فكان ما كان من فتنة شديدة.

ستجدون الحافظ بن كثير يُعلق على ذلك ويقول أن العلماء في هذا الوقت تأولوا هذا الحديث بأن النبي ﷺ عندما قال "اتركوا الترك ما تركوكم " كان يشير إلى هذا الأمر أنه ما كان على خليفة المسلمين في هذا الوقت أن يستفز هؤلاء، وكان يقولون التُرك ليس (على تعبيرنا الحديث) بالدولة التركية المعلومة، وإنما كان يقولون إن منطقة جنوب شرق أسيا تسمى هكذا وهي المنطقة التي خرج منها جنكيز خان وكان ما كان.

نفس الأمر هنا قال **"دعوا الحبشة ما ودعوكم"**، هنا استفز هؤلاء الناس من العرب أبرهه بصنيعهم ذلك، فلما رأى رُعاة الكنيسة ما فعل فيها رفعوا الأمر إلى أبرهه، وقالوا له إنما صنع هذا بعض قريش غضبا لبيتهم، فأقسم أبرهه ليُسيّرن جيشا كبيرا إلى بيت مكة وليُخربنَّه حجرًا حجرًا.

وذكر بعض أهل السير أن فتية من قريش دخلوا هذه الكنيسة فأحرقوها فسقطت إلى الأرض فعزم أبرهه على هدم الكعبة تشفيًا من صنيع أولئك.

سواء هذا الموقف أو هذه الحادثة أو تلك بأي حال من الأحوال استفزوا أبرهه فحشد جيشًا كثيفًا، واستصحب معه فيلاً عظيمًا كبير الجثة لم يُر مثله وكان يقال له محمود وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة وسمعت العرب بمسير أبرهه وجيشه فإشتد عليهم الأمر واستضلعوه، فخرج رجل من أشراف اليمن يقال له ذو نفر فدعى إلى حرب أبرهه وجيشه؛ دفاعًا عن الكعبة.

هزيمة قبائل العرب وسلب أموال القرشيين

أولاً: خرج مجموعة من الشجعان عليهم هذا الرجل ودعوا إلى صده قبل أن يصل إلى مكة فأجابه جمعٌ من قومه ومن غيرهم، فقاتلوا أبرهه وجيشه، لكنه هزمهم وأُسِرَ ذو نفر واستصحبه أبرهه معه .. وسار أبرهه بجيشه فاعترضه بعض بنى خثعم نفيل بن حبيب الخثعمي في قومه، فقاتلوه فهزمهم أبرهه وأسر نُفيّل واستصحبه معه ليكون دليلاً في بلاد الحجاز.

ولما اقترب من أرض الطائف خرجت إليه ثقيف فصانعوه .. .. السابقون في القتال ماتوا، فقد أهلكهم تمامًا .. فلما مرَّ على سقيف بدأو يلينوا له الكلام.

وخرج رجل يُدعى أبو رغال، هذا الرجل مهم لأنه مضرب المثل في الخيانة عند العرب، عندما يضرب العرب مثل (أنت كأبي رغال) أي أنت خائن. هذا الرجل خرج دليلاً لأبرهه إلى مكة فخان العرب، هو من دل أبرهه كيف يمشى ويصل إلى مكة وأعلمه بالطرق أي الطرق يسلك، فلذلك لما مات هذا الرجل دُفِن فكانت العرب ترجم قبره، كانوا يتعبدون بذلك.

وبعث أبرهه رجل من الحبشة يُقال له الأسود بن مقصود في خيل له .. بداية سلاح الفرسان والخيالة سبقوا إلى مكة، وساق إليه أموال أهل تهامة من قريش، وجمع هذا الرجل مجموعة من أموال القريشين وفيها دخل هذا الرجل على أموال العرب وأخذها، وكان منه أن أصاب مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ ، كم أخذ؟ حوالي مائتي بعير من الأبل.

وكان إذ ذاك سيد قريش، فهمَّت قريش وكِنانة وهُزيل ومن كان بمكة وما حولها من سائر الناس بقتاله .. بمعنى أنهم رأوا أن هذا الرجل أخذ أموالهم، فلن يتركوه هكذا حتى يأتي ويستأصلهم .. ثم سمعوا أنه لم يمر على قبيلة من قبائل العرب إلا وهزمها هزيمة نكراء. فبعث أبرهه رسولاً إلى مكة، وقال له: سل عن سيد أهل هذا البلد، ثم قل له إن الملك يقول لك: إني لم آتِ إلى حربكم .. أي أنه لم يأتي لقتل العرب .. وإنما جئت لهدم هذا البيت، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم .. بمعنى أن يتركوه يدخل هذا البيت ليهدمه وهو سيتركهم في حالهم .. فإن هو لم يُرد حربي فأتني به.

فجاء هذا الرجل وسأل عن سيد قريش فقيل له عبد المطلب بن هاشم، فجاؤه فقال له ما أمره به أبرهه.

فقال عبد المطلب الكلمة المشهورة في هذه الحادثة قال: والله ما نريد حربًا، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم عليه السلام فإن يمنعه منه، فهو بيته وحرمه، وإن يخلَّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفعٌ عنه .. أي أنه قال له هذا بيت الله وللبيت ربٌ يحميه ..

فذهب فقال له هذا الرسول من قِبَل أبرهه فإنطلق معي .. طالما أنك لا تريد حرباً تعالى لنتكلم في هذا الموضوع .. وإذهب معي إلى أبرهه لنتشاور في هذه المسألة.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى المعسكر فسأل عن ذي نفر وهو أول شخص أسره أبرهه، وكان له صديقًا حتى دخل عليه وهو في محبسه، فقال له: ياذا نفر، هل عندك من غناءٍ فيما نزل بنا .. أي أنه يسأله ماذا يفعل فذي نفر قضى مع أبرهه فترة مأسورا فسأله كيف يتصرف .. .

فقال له ذو نفر: وما غناء رجل أسير .. يعني ماذا يستطيع أن يفعل له وهو رجل أسير .. بيد ملك ينتظر أن يقتله غدوًا أو عشيا ما عندنا من غناءٍ في شيء مما نزل بك إلا أن أنيّسا صديقا لي .. أنيّساً هذا سائق الفيل محمود، عندما أسر ذو نفر كان يمر به أنيساً فحصل بينهم نوع من الصُحبة .. .

فقال وسأرسل إليه فأوصيه بك .. أي أنه سيرسل إلى أنيسًا طالبًا أن يعتني بعبد المطلب فهذا صديقًا لي وأحسن له المشورة .. وأعظّم عليه حقك وأساله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك .. أن يدخل على الملك فيستشفع لك قليلًا حتى تكون الأمور بينك

وبينه لا تكون شد وجذب، وإنما يستمع لك أبرهه ويعرف قدرك ويتعامل معك على وفق مكانتك، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك.

فقال عبد المطلب: حسبي .. أي يكفيني . أي أن هذا جيد جدًا له .. .

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة يُطعم الناس وكذا وكذا وكذا .. أي أنه وضح له أن هذا الرجل عبد المطلب رجل كريم ورجل عظيم ورجل شريف و و .. ،فاذهب إلى الملك وقل له أن جيشك أصاب مائتي بعير لعبد المطلب، فاستأذن له عليه وأنفعه عنده بما إستطعته .. أي ما تقدر عليه أفعله لعبد المطلب .. .

فقال أُنيّس: أفعل، فكلم أنيس أبرهه كما أوصاه ذو نفر فأذِن أبرهه لعبد المطلب. عبد المطلب جد النبي ﷺ كان من أوسم الناس، وسيم جميل عظيم ذو هيئة تجذب أعين الناس، فلما رآه أبرهه أجله وأعظمه وأكرمه حتى أنه لم يجعله يجلس تحته، بحيث لا يجلس أبرهه على كرسيه ويأتي عبد المطلب ويجلس بين رجليه، وإنما كَرِهَ أيضا أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه، فلا ينبغي أن يجلس جواره، فنزل عن سريره وجلس على البساط، أي أنه جلس على السجاده هو وعبد المطلب، هذا من هيبة عبد المطلب.

فقال عبد المطلب لما سأل أبرهه :ما حاجتك؟

فقال عبد المطلب: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي.

فلما قال ترجمان أبرهه لأبرهه ذلك .. أي ترجم له المترجم ذلك لأبرهه .. فقال له:

قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم قد زَهِدتُ فيك حين كلمتني، أتُكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين ابائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه.

فقال عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربا سيمنعه

.. انظرو إلى اليقين ..

فقال أبرهه: ما كان ليمتنع مني .. أي لا أحد يستطيع أن يفعل له شيئا .. فقال عبد المطلب: أنت وذاك. فرد أبرهه على عبد المطلب الإبل وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فلما دخل عليهم أخبرهم الخبر وقال لهم أن على كل فرد أن يذهب إلى الجبل ويبتعد الآن عن مكة، أي أنهم سيقومون بعمل حظر تجول داخل مكة لأن أبرهه داخل بجيشه ليهدم البيت وننظر ماذا سيصنع الله به.

وقام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش وأخذ يدعو الله ويستنصره على أبرهه وجُنده، وقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة.

اللهم إن العبد يمنع رحله فامنع حِلالك لا يغلبن صليبهم ومحالهم غدوًا محالك، إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمرٌ ما بدا لك .. يارب لا يصح بحال أن الصليب يغلب بيتك لكن أنت ربي وما تقدر وما تشاء ..

ثم اطلق عبد المطلب هو ومن معه من قريش إلى شِغاف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ماذا سيكون من الأحداث، فلما أصبح أبرهه تهيئ لدخول مكة وأعد عُدته وأمر جيشه بالتوجه شطر مكة، فبرك الفيل ورفض التوجه لمكة فضربوه وأرادو إلجاءه فأبى وامتنع عليهم فوجهوه تلقاء اليمن فقام يهرول، ووجهوه شطر الشام وشطر المشرق ففعل مثل ذلك، أي أنهم كلما وجهوه أي وجهه يتحرك لكن وجهه الكعبة يبرك ولا يتحرك، وهذا ما ذكره النبي ﷺ لما برك بعيره قول رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية إذ بركت ناقته فقال الناس : خلأت فقال النبي ﷺ : "ما خلأت ولا هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل"

[الراوي: المحدث: ابن حزم - المصدر: المحلى - الصفحة أو الرقم: 287/7 خلاصة حكم المحدث: صحيح]

"حبسها حابس الفيل" يعني هذا ما أراد الله عز وجل . وكان لما برك بعير النبي ﷺ في المكان الذي صار بعد ذلك محل مسجد قباء. فأرسل الله عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل، لا تصيب أحدا إلا هلك وليس كلهم أصابت مجموعة فقط نالهم هذا العذاب."حبسها حابس الفيل"...

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3] **{تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ}** [الفيل: 4] **لا تُصيب أحدًا إلا هلك وليس كلهم أصابت ولكن مجموعة فقط هم الذين نالهم هذا العذاب فخرجت البقية هاربة تُبادر الطريق وتساقطوا بكل طريق وهذا هو معنى {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}** [الفيل: 5].

وهلكوا بكل مهلك وعلى كل منهل، وأصيب أبرهه في جسده وخرج به بعض جنده يحملونه معهم وسارت أنامله تسقط أنمُلة أنمُلة، حتى قدموا به صنعاء فلما دخلها مات فيها. وهكذا صنيع الله تبارك وتعالى دائمًا أبدا بمن يريد كيدا، فالله جل وعلا توعد بأن من يكيد بأنه سيُكاد له.

{إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً} [الطارق: 15]

{وَأَكِيدُ كَيْداً} [الطارق: 16]

{فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً} [الطارق: 17]

{...وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ...} [الأنفال: 30]

{...يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ...} [النساء: 142]

لما علمنا هذا، كانت الخطوة الثالثة عرفنا أجواء الحدث الذي تكلمت عنه السورة.

3. التدبر التحليلى السورة

نبدأ في التدبر التحليلي لآيات السورة واستخراج الفوائد العلمية والإيمانية والتربوية منها.

لو أردنا أن نضع عناوين لهذه السورة، نقول في:

- **العنوان الأول: ما فعل الله بأصحاب الفيل؟ والمقصود بذلك {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]**
- **العنوان الثاني: أنهم دبروا كيدًا فجعل الله تبارك وتعالى كيدهم في ضياع فأبطل وسائلهم وأهلكهم.**
- **العنوان الثالث: وسيلة إهلاكهم وتعذيبهم .. وهي أن سلط الله عز وجل هذه الجماعات من الطير تحمل بأرجُلها ومناقيرها حجارة أصلها من طين وبتأثير النار صارت صُلبة قاسية.**
- **العنوان الرابع : عاقبتهم في الدنيا، عاقبة هؤلاء المجرمين في الدنيا وهي {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} [الفيل: 5]**

* الفائدة في {أَلَمْ تَرَ...}

- **قال الله جل وعلا: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]**

{أَلَمْ تَرَ...} هذا تكرر في القرآن، تكرر في القرآن استعمال هذا الأسلوب الاستفهامي الموجه على سبيل الخطاب، {أَلَمْ تَرَ...} وهنا سؤال لم قال {أَلَمْ تَرَ...} مع أن هذه الواقعة وقعت قبل مبعث النبي ﷺ بزمان طويل .. يقول له ما رأيت ما حدث وهل النبي رأى ذلك! .. .

هنا الرؤيا العلماء يقولون ليست الرؤيا البصرية إنما الرؤية هنا بمعنى العلم، المراد من الرؤية هنا العلم والتذكير واستخدم رأى لكي يدل على أن هذا الخبر خبر معلوم خبر يقين خبر متواتر، فهو في الظهور والجلاء كأنه رآه بعينه .. يعني ياجماعة نأخذ منها فائدة إيمانية .. .

انظروا عندما النبي ﷺ "يقول أن جبريل سأل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك." [الراوي: المحدث: ابن العربي - المصدر: أحكام القرآن - الصفحة أو الرقم: 172/4 خلاصة حكم المحدث: صحيح]

وهي أعلى منازل الإيمان منزلة الإحسان ومنزلة تُشير إلى موضوع اليقين، اليقين أن الأشياء التي تعرفها كأنك تراها كأنها أمامك، العلم بالشيء وصل إلى أعلى درجات اليقين، لدرجة أن الشخص ليس كأنه بمسألة غيبية في ذهنه بل كأنة يراها بعينيه.

لذلك لدينا في المنزلة الأولى في اليقين علم اليقين ثم عين اليقين.

ف{أَلَمْ تَرَ...} تفيد هذا المعنى أي ياجماعة لو أنا أريد أن أعرف

وأقيس مقياس الإيمان أين نحن الآن، عندما نصل إلى إن الموضوع كأني أرى الجنة والنار "لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت ؟ يا حنظلة ! قال قلت : نافق حنظلة . قال : سبحان الله ! ما تقول ؟ قال قلت : نكون عند رسول الله ﷺ. يذكرنا بالنار والجنة . حتى كأنا رأي عين .... " [الراوي: حنظلة بن حذيم الأسدي التميمي المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم - الصفحة أو الرقم: 2750خلاصة حكم المحدث: صحيح]

هذه هي، هذه هي{أَلَمْ تَرَ...} إذًا الفائدة هنا في {أَلَمْ تَرَ...} أنه أراد العلم والتذكير ولكن استخدم رأى ليدل على قوة اليقين.

* الفرق بين {أَلَمْ تَرَ...} و {..أَلَمْ تَعْلَمْ..}

حسنًا وعندما يقول القرآن يقول {...أَلَمْ تَعْلَمْ...} مثلاً يقول الله تبارك وتعالى {...أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 106] **وهنا يقول {أَلَمْ تَرَ...} ويقول مثلاً {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ الْقُرُونِ...}** [يس: 31] **ما الفرق؟ قالوا: ما لايُتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم.**

انظروا إلى تلك اللطيفة لكن ياليت الناس تفهم.

هو الشيء الذي من الممكن أن يرى يقال فيه {أَلَمْ تَرَ...} إنما هل الله يُدرَك بالأبصار؟، لا تدركه الأبصار وهو يُدرك الأبصار. في الله قال{...أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ...} [البقرة: 106]، لم يقل ألم ترَّ أن الله فيما لا يمكن إدراكه، يعني بالبصر هنا لا يُستعمل فيه إلا العلم، أما ما يُمكن أن يتصور ويدرك ويُنظر مثل فرار الفيل في هذه السورة يستخدم فيه {أَلَمْ تَرَ...}

* لماذا قال {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...} .. ولم يقل .. ألم ترَّ ما؟

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]

لماذا قال .. {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...} .. ولم يقل .. ألم ترَّ ما فعل ربك .. لماذا يتكلم في الكيفيات؟

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...} .. ولم يقل .. ألم ترَّ ما فعل ربك .. ألم تعلم ماذا حدث فيهم؟

قالوا: لأن الأشياء لها ذوات، لها هيئة معلومة "ذات " ولها كيفيات، والمدح يحصُل برؤية الكيفيات لا الذوات، أي ليس بالشكل الخارجي.

إنما هذا الشيء (كيفه- تأثيره- فعله)، كأننا بالضبط نقول لو اعتبرنا أن إنسان يرى وجه جميل أو امرأة جميلة،

هكذا نحن نتكلم على ذات، أي وجهها جميل يأخذ بأعين الناس.

لكن عندما نتكلم عن خُلُق وسلوك وتربية وكذا، أنت تتكلم في كيف.

فهل الثنــاء يكون على الجمال الظاهري أم على الجمال الباطني؟

على الباطن .. ليس الناس يمدحون الشكل الخارجي فقط، لكن عندما بدأ يتكلم مع هذه المرأة الجميلة فُزع، أسلوبها صعب جدا ولسانها سليط وكذا فبدأ الإنسان يبتعد، هي نفس الفكرة فالجمال الباطن .. لذلك قال {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ...} ربنا يقول {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا...} [ق: 6]

فالكيفية تدل على قدرة الله تبارك وتعالى .. فهنا عندما أراد أن يتكلم عن هذه القدرة، فهو لا يتكلم عن الحادث في ظاهره .. أرأيت ما حدث، الفيل جاء وكان سيهجم على مكة وحدث كذا وكذا ثم فر .. .

هكذا نحن نتكلم في ما حدث، إنما كيف حدث ذلك؟ هذا بقدرة الله تبارك وتعالى .. يعني نتكلم عن باطن الحدث وليس ظاهر الحدث، باطن الحدث فيه قدرة الله جل وعلا، لذلك قال: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]

* السورة فيها رد على الملاحدة

قالوا هذه السورة، أي مع الآية الأولى فيها رد على الملاحدة لماذا؟ لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله بها الأمم أعذارًا، تعلمون لما يحدث زلزال يقولون عن ماذا تتكلمون، هذه حوادث طبيعية أصلًا وموجودة وتُقاس. ومعلوم أن في منطقة زلازل في المنطقة الفلانية وأن كذا وأن كذا، هذه ظواهر طبيعية لماذا تربطوها بأنها عقاب من الله وعذاب من الله يا أخي الأرض تحركت ماذا حدث هذا ما يقوله الملاحدة، فدائما أبدا يأتون بمثل هذه الأعذار، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار.

لماذا؟

لأن الفيل تحرك في جميع الإتجاهات إلا إتجاه الكعبة لماذا؟

والطير الذي أتت بهذه الحجارة، وهل الطير يفعل هذا بجيش يُصف بأنه جيش كثيف عرمرم يعني جيش كبير ذو قوة وبأس يفعل فيه هذا بعض الطير؟.

إذًا هذه السورة فيها رد على هذا المسلك من مسالك الملاحدة الذين لا يعترفون إلا بالأمور العقلية وتراهم لا يعترفون بالمعجزات.

قول الله تبارك وتعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ...} كلمة فعل،

لماذا قال فعل ولم يقل جعل أو خلق أو عمل؟

ما الفرق؟

كلمة فعل {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ...} ، لِمَ لم يقل عمل أو خلق أو جعل ألم تر كيف جعل ربك أو هؤلاء كذا.

انتبهوا لهذه الأشياء فهي دقيقة ونريد هذا الكلام أن يُحفظ ويُعرف.

• ما الفرق بين فعل وجعل وخلق؟

خلق يستعمل في ابتداء الفعل، خلق يستخدم عند ابتداء الفعل (خلق السموات والأرض) أي أن هذا في أول الأمر {وجعل الظلمات والنور}

جعل تستخدم في الأمور الكيفية، في الكيفيات مثل ما قلنا إن في ذوات وفي كيفيات، فجعل تستخدم في الكيفيات.

كلمة **عمل** لا تكون إلا بعد طلب أي أني طلبت منكم أن تكتبوا مجموعة من الفوائد فعملتوها، طلبت فعملتم، لا يقول ففعلوها وإنما عملوها.

كلمة عمل لا تستخدم إلا بعد طلب، أما فعل فهي عامة.

كلمة **فعل** تستخدم في هذا كله فهي لعمومها أرادها الله هنا، فهي أولى لأن الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الطيور التي رمتهم بالحجارة وهو الذي جعل طبع الفيل .. هذه الكيفية .. جعل هذا الطبع فيه فما توجه تلقاء الكعبة.

ولما سأل اللهَ عبد المطلبُ عندما أخذ الناس ودعوا الله، طلب من الله أن يصنع بهم شيئا فعمل الله لهم ذلك. فلما أراد ربنا سبحانه وتعالى أن يقول الحادث كله قال فعل.

لأن خلق: خلق الطير وجعل الفيل لا يتوجه تلقاء الكعبة وعمل بعد أن طلب عبد المطلب ومن معه من الله عز وجل أن ينصرهم وأن يحمي بيته فعمل الله لهم ذلك واستجاب دعائهم.

أفهمتم الفرق؟

أي أن فعل فيها معنى خلق وفيها معنى جعل وفيها معنى عمل.

أرأيتم القرآن اللفظ الواحد كم هو عِظم القرأن وإعجازه.

انظروا .. ترى وكيف وفعل .، ثم قال {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ...} ، ولم يقل ألم تر كيف فعل الله، ألم تر كيف فعل الرب، ألم تر كيف فعل...ويُثني على نفسه سبحانه وتعالى بما يشاء.

*** لماذا قال ربك دون غيرها؟**

أتعلمون لماذا؟

قالوا لأنه سبحانه وتعالى كأنه يقول إنهم لما شاهدوا هذا، شاهدوا هذا الإنتقام وبعد ذلك لم يتركوا عبادة الأوثان، وأنت يا محمد ﷺ ما شاهدته ولكنك اعترفت بالشكر والطاعة، أي أن من رأي ذلك لم يتخذ الله ربًا ومن لم يرى إتخذه ربًا .. وهكذا (ربك)

فهو ربك وليس رب هؤلاء على معنى أنهم لا يؤمنون به سبحانه وتعالى، وإلا فالله تبارك وتعالى هو الربُّ سبحانه وتعالى لجميع الخلائق بطبيعة الحال، فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الإنتقام .. فلا جرم تبرأت عنهم واخترتُك أنت من وسطهم لتكون لي نبيًا، كأن الكلام هكذا.

ربُك أنت وليس أي شيء، فشرَّفه سبحانه وتعالى بأن نسبه لنفسه، ربك.

الأمر الثاني: كأنه سبحانه وتعالى يقول إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك؛ تعظيمًا لك وتشريفًا للعام الذي ستولد فيه، وكأن الله يقول له: فأنا كنت مُربيًا لك قبل قومك، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك؟

إذا كان حادثة الفيل كانت بشارة على أن الله سبحانه وتعالى ينصر عباده المؤمنين.

وكانت توطئة لمجيء النبي ﷺ ليعُم في الدنيا الخير، إذا كان كذلك فإذا كان الله قبل ولادة النبي كان ينصره بهذه الحوادث فكيف بعد أن بعثه .. كأن المعنى هكذا: هو ربك فينصُرك ويحميك ويرزقك ويدبر أمرك.

{أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]

* فوائد اسلوب التعجب

معنى من المعاني أيضًا من الفوائد ذكرها بعض أهل العلم قالوا قوله {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ...} مذكور في معرض التعجب، أنه ألم ترى على معنى التعجب كأن أحدهم يقول:

.. ألم تر ما حصل .. على شكل المتعجبين من الحدث لأنه شيء خارق للعادة.

قالوا وهذه الأشياء بالنسبة لقدرة الله ليست بعجيبة فلماذا قال الله {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ...} على هذا الأسلوب من التعجب؟ قالوا أولاً الكعبة تبعٌ للنبي محمد ﷺ وذلك لأن العلم يؤدىَ بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم.

ماذا يعني هذا؟ شيئٌ كثيرًا ما نقع فيه.

تجد الناس يتهافتون وحرصاء شدة الحرص على بناء مسجد، "ومن بنى لله بيتا واحتسب" [متواتر] ولكن لا يهتم كثيرا بأن العالم أو طالب العلم الذي سيُعمِّر هذا المسجد، فيقولون العلم من الممكن أن يكون في معهد ، في أي مكان، فمن الممكن أن يكون العلم بدون مسجد، أما المسجد بلا علم بلا عالم يُعلّم فيه فكأنه لا مسجد.

فكأنه تعالى يقول إن الملك العظيم أي أبرهة عندما طعم في المسجد هزمته و أفنيته، إذا كان الذي يفعل ذلك، الذي أراد أن يجُهز على المسجد.

وقد ذكرنا منذ قليل إن العالم أعظم من المسجد إذا كان النبي ﷺ قال "المؤمن أعظم حرمة من الكعبة" [الراوي: المحدث: الزرقاني - المصدر: مختصر المقاصد - الصفحة أو الرقم: 1117 خلاصة حكم المحدث: ضعيف]

فكيف تكون حُرمة النبي؟

ستكون أعظم بلا شك، إذا كان ذلك فِعل ربنا بالمسجد، فما فعله برب المسجد بمعنى صاحب المسجد، العالِم الذي يُعمِّر المسجد و هو النبي محمد ﷺ وورثته من بعده، فكأنه يقول أين يكون العجب؟، لا تعجبون أنه إذا كان صنيع الله تبارك وتعالى بمن أراد ذلك ببيته، فكيف صنيعه بمن أراد أن يقع في النبي محمد ﷺ وأصحابه وورثته من بعده فكيف يكون صنيع الله تبارك وتعالى.

ثاني شيء قالوا أن الكعبة قِبلة الصلاة فهي قِبلة صلاتك وقلبك والقلب قِبلة المعرفة، فكأنه يقول ذلك الله تبارك و تعالى فأنا حفظت قِبلة عملك، قِبلة الصلاة عن الأعداء فاسع أنت في حفظ قِبلة قلبك الذي هو قلبك، انظرو للمعنى... فهو عالٍ جدًا ... يارب نفهمه.

إذا كنا نتوجه بأجسادنا حال الصلاة إلى الكعبة، فمن المفروض أن قلوبنا متوجهه إلى الله في كل وقت.

فربنا يقول لقد حفظت لكم قِبلة الصلاة أي الكعبة، فألا تتوجهون أنتم بقلوبكم إلى من صنع ذلك بكم. مَن حفظ لكم هذا أليس من المفترض أن قلوبكم تتوجه له ولا تتوجه لغيره.

الآن الكلام عن حفظ الكعبة، فالكعبة هي قِبلة الصلاة، أليس كذلك؟

نحن نتوجه بأجسادنا ونتوجه بوجوهنا إلى الكعبة، أليس كذلك؟

هذا الظاهر فربنا حفظ لنا الكعبة التي هي قِبلة أجسادنا.

بينما قلوبنا المفروض أن القِبلة التي تتوجه إليها هي السماء، فمن المفترض أن تنظر قلوبنا إلى ربنا، فمن المفترض أن تلك القلوب تكون مشتاقة إلى الله وألا تكون مشغولة بالدنيا، لا تكون مشغولة بالبيت والزوج والزوجة والأولاد والمعيشة والطعام والشراب والملبس والحياة وال كذا، أن لا يكون هذا شغلها الشاغل، أي هذه أمور تؤدىَ ولكن بعيد عن القلب، فلا ينبغي أن يكون أكبر همي الدنيا.

اللهم لاتجعل الدنيا أكبر همنا. فكأن المعنى إذا كان ربنا حفظ قِبلة الأجساد، فينبغي عليكم أن تحفظوا القلوب التي ينبغي أن تتوجه وتكون قبلتها السماء.

كيف يحدث هذا؟

كما طهر ربنا بيته من المشركين أنتم أيضا طهروا قلوبكم من الآثام والمعاصي. انظروا كم استخرج من الفوائد في {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} [الفيل: 1]

*** لماذا قال بأصحاب الفيل ولم يقل بمُلاك الفيل أو بأرباب الفيل؟، قالوا قوله بأصحاب الفيل يدل على أن أولئك الأقوام كانوا مثله أي كأنهم عفاكم الله كأنهم كالحيوانات، كما قال الله تبارك وتعالى {...أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ...} [الأعراف: 179]**

فأصحاب الفيل مثلهم مثله لا فهم ولا عقل ولا حياة حتى سولت لهم أنفسهم أن يصنعوا ذلك، فلذلك قال أصحاب ولم يقل أرباب ولم يقل مُلَّاك وإنما قال أصحاب كأنهم هم والفيل في رُفقة واحدة.

فائدة أخرى قالو أليس كفار قريش كانوا قد ملأوا الكعبة من الأوثان.

النبي ﷺ كان يطوف بالبيت وحوله ثلاثمائة وستين صنم وكان يطوف بالكعبة وبعد بعثته ﷺ ، تلك الأوثان كانت موجودة ولاشك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة.

فلماذا سلط الله العذاب على من قصد تخريب الكعبة ولم يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان؟ أتعلمون لماذا؟

الوضع الطبيعي أن نقول هؤلاء يعبدون الأوثان وهذه شركيات، والآخرون كأبرهه كانوا على الأقل على النصرانية فيعني أن الأمر أخف .لماذا؟

قالوا لأن وضع الأوثان فيه تعدٍ على حق الله، أما تخريب الكعبة ففيه تعدٍ على حق الخلق مثل قاطع الطريق والباغي والقاتل، هؤلاء يُقتلون مع أنهم مسلمون ولا يُقتل الشيخ الكبير والأعمى والمرأة إن كانوا كفارًا، نحن لم نأمر بأن نقتل غير المسلمين بغير سبب، لأنهم كفار وموجودين وهؤلاء يغضبون الله سبحانه وتعالى فنقتلهم كلهم، لا يجوز هذا إلا أن يحاربونا.

إنما الشخص إذا كان مسلم وتعدى على حق من حقوق الخلق، الله تبارك وتعالى أمرنا بأن نقتل هؤلاء البُغاة، قطاع الطرق، القتلة. فانظروا كم أن الله سبحانه وتعالى حليم، فحقه هو سبحانه وتعالى يتجاوز عنه أما حق الخلق فلا يتجاوز عنه.

فلذلك كانت هذه الفائدة أنه ما عذبهم وما سلط عليهم العذاب رغم وثنيتهم، ولما تعدوا على حقوق الخلق كان هذا الأمر بأن سلط عليهم هذا العذاب.

* لماذا استخدم كلمة كيد؟

قال الله جل وعلا {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} [الفيل: 2]

قلنا {أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} لأنهم أرادوا كيد قريش بالقتل والسبي وكيد البيت بالتخريب والهدم، فجعله في تضليل أي جعله في هلاك وضياع وبُطلان.

هنا فائدة لماذا استخدم لفظ الكيد وقد قلنا في البداية أن كلمة الكيد تعني إرادة المضرة في خفاء لماذا سماه كيدًا رغم أن هذا الكيد كان ظاهرًا. أي عندما نقول كيد النساء، كيد يعني أنها تمكر وتخدع في خفاء وجهها لا يُبدي ما تبطنه من معاني ومن أمور تكيد بها.

هذا المعنى كلمة كيد تُستخدم في الأمور الخفية، لكن قصة أصحاب الفيل لم تكن قصة خفية كانت ظاهرة، قالوا نعم لكن الذي كان في قلوبهم شر مما أظهروه، أبرهه قال لهم أنه داخل إلى البيت لهدمه فقط، ردا على ما حصل في كنيسته واحدة بواحدة وانتهى الأمر، هذا الظاهر.

أما ما كان يضمر فهو الحسد للعرب كان يريد أن ينال هو هذا الشرف الذي حصَّله العرب بأن يحجوا إلى الكعبة إلى بيت الله الحرام. فأراد بما أضمر من حسدٍ أراد أن يخرب هذا البيت لأجل ذلك، لذلك عبر بكيد لأن ما أضمروه كان أخطر مما أظهروه.

* لماذا يقول في تضليل؟

{...فِي تَضْلِيلٍ} قلنا في تضليل أي في هلاك وفي ضياع، الله عز وجل قال {...وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ} [الرعد: 14] أي في ضياع، لماذا يقول في تضليل؟

لماذا لم يقل ألم يجعل كيدهم ضلالا؟ يعني جعل هذا هباءًا منثورا.

لماذا لم يقل ذلك؟ لماذا قال في تضليل؟

العرب تستخدم هذا، تقول سعى فلان في ضلال أي أنه سعى في إهلاك نفسه بنفسه، فالله تبارك وتعالى لما أراد هؤلاء هذا الكيد وكان منهم ما كان. الإنسان إذا سعى عادة يسعى إلى الرشاد.

الله جل وعلا جعل، حول هذا الكيد الذي كان في خفاء الذي كانوا يطلبون به الرشاد، يطلبون به الخير لأنفسهم، جعله في تضليل، فكأن الإنسان يسعى في ضياع نفسه، فلم يُعبر بأنه سيَّر الأمر بمجرد أن فعلوا كذا صنع كذا، إنما استخدم "في" كأن الإنسان يستغرق في تضييع نفسه.

لفظ "في" يفيد الاستغراق يعني أنه يدخله بقوه جدًا، إنسان ساع بكل همة أن يضيع نفسه.

{أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ} [الفيل: 2]

كلمة السعي إذا رأيتموها في القرآن، تعني دائما أنها تتكلم عن علو الهمة على النشاط على الهمة العالية، ساعين بمنتهى الجدية بمنتهى النشاط، سعيهم فهو هنا جعل كيدهم هذا الكيد وهذا السعي منهم جعله في تضليل.

* لماذا جاءت طيرًا... نكرة؟

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3]

لم يقل أرسل عليهم الطير الأبابيل، لماذا قال طيرا على التنكير... نكرة، لماذا؟

قالو إما ليدل على أنها كانت في منتهى الحقارة، فطائر حقير صغير يصنع بهم هذه الأفاعيل، فهذا يدل على أن صُنع الله عز وجل بهم كان عجيباً. أو للتفخيم، أي طيرًا ترمي بحجارة صغيرة فلا تُخطئ المقتل، من يصيبه حجر من هذه الحجارة يموت في الحال.

فإما على التحقير أو على التفخيم، على التحقير أي شيء بسيط جدًا وتركت فيهم هذا التأثير الخطير، على التفخيم أي كانت هذه الجماعات من الطير مُسددة، فأي حجر يصيب إنساناً تصيبه في مقتل فيموت في حاله.

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3] أي جماعات متفرقة.

قالت عائشة رضي الله عنها "كانوا أشباه الخطاطيف"، قالوا: كانوا يشبهون الوطاويط في شكلهم، وفي كتب التفسير التي لا ينبغي أن نتوقف عندها .. فهناك من قال: كانوا سوداً وكانت مناقيرهم خضراء .. ولا فائدة لمثل هذا الكلام .. تجدوا مثل ذلك في كتب التفاسير.

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3] كثيرة متتابعة متفرقة من هنا ومن ها هنا.

{وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ} [الفيل: 3] {تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ} [الفيل: 4]

هذه الحجارة على ما بينا، {فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} [الفيل: 5] أي كزرع أكلته الدواب ووطئته بأقدامها دِلالة على خِسة حالهم، أي هذا العصف هو مثل التبن أي شيء يدوس عليه الناس بأرجلهم ويستحقروه وربما يأنفوا منه، هو كذلك فجعلهم مثل التبن {...كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ}، لا يأكله الناس وإنما تأكله الدواب وتأكله الحيوانات وهذا مناسب لأول السورة.

أصحاب الفيل لما كانوا أمثال الحيوانات، بلا فهم وبلا وعي وبلا روح وبلا إيمان جعلهم {...كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ} كطعام يطعمه هؤلاء من الحيوانات.

هذه السورة فيها معنى مهم نختتم به.

<u>* هذه القصة تأكيد لنبوة النبي ﷺ</u>

يا جماعة ذُكر في التاريخ أن الحجاج خرَّب الكعبة ولم يحدث له ذلك.

لماذا عندما حاول أبرهه عمل هذه الكارثة وهي تخريب الكعبة نزل به العذاب في الحال؟ لكن عندما رمى الحجاج الكعبة بالمجانيق في فتنة عبد الله بن الزبير حتى أحرقها، والكعبة في هذا الوقت دُمِرَت.

لماذا لم يحدث شيء من ذلك في عصر الحجاج؟! قالوا قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه إلا لسببٍ عظيم، وهى إنها توطئة لأمر النبي ﷺ ، فإذن كان هذا الأمر ليكون من دلائل نبوته ﷺ ، وهذا لم يكن في عصر الحجاج.

فهذه القصة ينبغي أن تُقرأ من هذا الجانب، أنها تأكيد لنبوة النبي ﷺ بالدلائل القاطعة وأنها مظهر من مظاهر قدرة الله عز وجل في تدبيره لخلقه وبطشه بأعداءه. هذه السورة كانت سلوى لرسول الله ﷺ وسلوى للمؤمنين في كل زمان عما يلاقونه من ظلم من أعدائهم.

و هي مُذكِرة بفعل الله عز وجل وبيوم من أيام الله، خوَّف فيه سبحانه وتعالى وأرهب وأرعد هؤلاء الذين يعادون دينهم، وهذه السورة تثبيت للنبي ﷺ وللصحب من بعده، بأن الله تبارك وتعالى يدفع عنه كيد المشركين فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته أحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ولدينه، والله ناصر دينه والله مُتم نوره ولو كره الكافرون.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يكون فيما قلناه وما سمعتموه حجةً لنا لا علينا.
سبحانك اللهم ربنا وبحمدك نشهد أن لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك

تم بحمد الله
الشيخ هاني حلمـــــــــي